الفصل الأول

النقد في عصر ماقبل الاسلام

لسنا معنيين هنا في البحث عن اصول الشعر العربي والنظريات الملازمة لهذا النوع من الدراسات(١) الا بالقدر الذي يفيدنا في افتراض ان القصيدة العربية ـ مادة النقد الادبي في هذا العصر ـ قد مرت بمرحلة نشوء وتطور وارتقاء على نحو ما يحصل في امور الحياة كلها . وان هذه المرحلة التي لانعرف عنها شيئاً (كثيراً) شهدت مظهراً من مظاهر مايسمى بالنقد الادبي . ان كلمة (تطور) في الشعر تفترض النظر واعادة النظر في النص وصولا به الى مرحلة الكمال او مايقارب منه . وتشمل اعادة النظر هذه التنقيح والاختيار والحذف والاستبدال وفحص العبارة والصورة .. الخ وكل هذا يندرج بشكل او بآخر في النقد .

وعلى هذا يستند كثيرون من مؤرخي النقد العربي القديم في درسهم له في هذا العصر غير انه لابد لنا قبل المضي في مناقشة الموضوع على نحو مفصل ان نشير الى ان مؤرخي النقد القديم ينقسمون الى طائفتين .

---

١ . انظر في هذا ، بروكلمان ، تاريخ الادب العربي (القاهرة ١٩٥٩) ١/ ٤٤ ود . شوقي ضيف ، العصر الجاهلي (القاهرة ١٩٦٠) ١٨٣ وغيرها .

واحدة ترى ان النقد العربي يبدأ في عصر ماقبل الاسلام .. واخرى ترى ان النقد المنهجي على نحو خاص يبدأ في القرن الثاني للهجرة(٢) .

فما السبب في هذا الاختلاف ؟ ان الاختلاف في الموقف مرده فهم كل طائفة لمعنى النقد . فالطائفة الاولى لاترى في النقد غير الاحكام الجزئية السريعة الانطباعية .. وقد وجدت في عصر ماقبل الاسلام . والطائفة الثانية ترى ان مثل هذه الاحكام ليست من النقد في شيء .. وان النقد الصحيح هو الذي يستند الى قواعد واصول ومنهج . وان مثل هذا لم يحصل الا في القرن الثاني للهجرة .

يقول طه احمد ابراهيم عن النقد في هذه الحقبة (انه نقد ناشيء) قائم على الاحساس بأثر الشعر في النفس .. والحكم مرتبط بهذا الاحساس قوة وضعفا . والعربي يحس بأثر الشعر احساساً (فطرياً) لاتعقد فيه . ويتذوقه جبلة وطبعا . عماده في الحكم على ذوقه وسليقته . فهما اللذان يهديانه الى الجيد من القول والى المبرز من الشعراء . فليست لديه اصول مقررة للكلام الجيد كما عند المحدثين . وليست لديه مقاييس يأتنس بها في المفاضلة بين الشعراء ... ليس لديه غير طبعه وذوقه(٣).

ويقول د . احمد امين (لم يكن النقد مبنيا على قواعد فنية . ولا على ذوق منظم ناضج انما هو لمحة الخاطر . والبديهة الحاضرة وقد احتاج النقد الى زمن طويل في الاسلام حتى يؤسس على قواعد ثابتة(٤) .

وقد حاول د . طه الحاجري ان يرسم صورة (لذلك اللون من الوان النشاط الادبي في العصر الجاهلي . وان تكن صورة خافتة قليلة التفاصيل) لان (النقد الادبي عند العرب لم يتميز بذاته ولم يصبح فنا قائما بنفسه له اتجاهاته الخاصة به . والوانه المميزة له ومناهجه المرسومة لدرسه وله رجاله المعنيون بابحاثه

---

٢ . ابرز من يمثل هذا التيار طه احمد ابراهيم في كتابه (تاريخ النقد الادبي عند العرب) وشايعه في موقفه دارسون اخرون مثل طه الحاجري في كتابه (في تاريخ النقد والمذاهب الادبية) القاهرة ١٩٥٣ ... ود . شوقي ضيف في كتابه (النقد من سلسلة فنون الادب العربي (القاهرة ١٩٥٤ ود . داود سلوم (النقد العربي القديم) (ط ٢ ١٩٧٠) اما الطائفة الثانية فأول من يمثلها د . محمد مندور في كتابه (النقد المنهجي عند العرب) ود . محمد زغلول سلام في كتابه (تاريخ النقد العربي) ود . احسان عباس في كتابه (تاريخ النقد الادبي عند العرب) . وانظر ايضا د . محمد غنيمي هلال (النقد الادبي الحديث) .

(٣) تاريخ النقد الادبي عند العرب (القاهرة ١٩٣٧) ١٦ ـ ١٨

(٤) النقد الادبي (القاهرة ١٩٦٣) ٤١٨ ويتفق مع هذه الاراء د . محمد زغلول سلام انظر تاريخ النقد العربي (القاهرة ١٩٦٤) ١/ ٧٤ وما بعدها

ومسائله المختلفة يعقدون لها المجالس ويؤلفون فيها الكتب ويصنعون لها الرسائل ، الا بعد ان اخذت علوم اللغة والادب سبيلها الى النضج والاكتمال وجعلت الحياة العربية الجديدة تستكمل عناصر الاستقرار والانتظام ولكن هذا لايعفينا من ان نتتبع بدايات ذلك النقد من اوائل التاريخ الادبي . وطبيعي ان يكون النقد في مراحله الاولى (ساذجاً بسيطاً) ليس الا صورة من الاستجابة الطبيعية لنزعة الحكم وانفعالاً (اولياً تلقاء الاثر الفني ، وتعبيرا عن ذلك الانفعال في عبارات تناسبه سذاجة واولية . ثم يختلف الامر بعد ذلك بين البساطة والتعقد ، ويتفاوت بين العموم والدقة ، وبين السطحية والتعمق . باختلاف الحياة الادبية والعوامل المؤثرة بها والعناصر الغالبة عليها .(٥) .

واذا يتفق انصار الطائفة الثانية في تحديد ملامح مايسمى نقدا في عصر ماقبل الاسلام وحتى نهاية القرن الاول للهجرة بالسمات التي المحنا اليها قبل قليل ، يعيبون على هذا النقد ـ كما عند د . محمد مندور مثلا ـ انه يفتقر الى :

١ ـ المنهج الذي لايكون الا لرجل نما تفكيره فاستطاع ان يخضع ذوقه لنظر العقل .

٢ ـ التعليل الذي لم يكن من الممكن ان يتوفر لدى الناقد البدوي ، لان التعليل يستند الى مبادىء عامة من العلوم اللغوية مثلا(٦) .

وانطلاقا من هذا الفهم للنقد ، مضى د . مندور يؤرخ له بدأ من ابن سلام وكذلك فعل د . احسان عباس .

ولسنا نختلف مع اي من هاتين الطائفتين ، بل لعلنا نتفق معهما في ان النقد العربي قبل الاسلام كان(ذوقياً فطرياً)عاماً . يخلو في اغلب الاحيان من التعليل والتفسير . وان النقد العربي بعد انتهاء مرحلة الرواية والتدوين بدأ يبرز ويعلل على وفق منهج .

على اننا نميل الى ان لانهمل ماكان يدور في تلك المرحلة الاولى من ملاحظات وآراء تقترب من النقد بدرجة او باخرى . لذلك لابد من العودة الى هذه الحقبة التاريخية لرصد ماكان بها من نقد . فنتابع مظاهره واسبابه ورواياته بالتفصيل .

---

(٥) في تاريخ النقد والمذاهب الادبية (القاهرة ١٩٥٣) ٤٠ ، ١٨

(٦) النقد المنهجي عند العرب ١٧

لم يعدم مؤرخو النقد من ان يجدوا اسبابا موضوعية تدعو الى وجود النقد بل توجب وجوده . مادام النقد ملازما للادب او تاليه في الوجود . فالشاعر الذي يهذب ويشذب وينقح ويعدل يمارس النقد للنص الذي يبدعه .. وهو نقد ملازم للعملية الابداعية ومتمم لها والمستمع ـ او القارىء ـ الذي يصوب ويميز ويوازن ويقوم انما يمارس نقداً (تالياً) للعملية الابداعية ويظهر ان هذين النوعين وجدا في عصر ماقبل الاسلام .

والاستاذ طه احمد ابراهيم يرى ان الشعر العربي الذي وصلنا ناضجا (مكتملاً) مر بضروب من التهذيب حتى بلغ حد الاتقان . وبين الحداء ـ الذي يظن انه نواة الشعر العربي ـ وبين القصيدة المحكمة عصر طويل من النقد الذي الج على الشعر بالاصلاح والتهذيب حتى انتهى به الى الصحة والجودة .(٧) ومثل هذا القول انما هو استنتاج عقلي تفرضه طبيعة الاشياء . غير ان هناك اسبابا اخرى تدعو بالضرورة الى ان يكون هناك نقد اخر غير نقد التهذيب والتنقيح الذي اشار اليه طه احمد ابراهيم وهو النقد التالي للعملية الابداعية ... نقد المستمع الى الشعر .. او القارىء له ... وهذه الاسباب هي :

١ ـ استقرار المناهج الشعرية والتقاليد على وجه من الوجوه . بل لقد بلغ من استقرار هذه التقاليد انها استطاعت ان تفرض وجودها لاجيال . وان تقاوم كل عوامل التطور واسباب التغيير سواء اكان ذلك في موسيقى البيت او القصيدة او الموضوعات الشعرية .

٢ ـ الدراسة الشعرية المتمثلة في الرواية . فقد كان لكل شاعر رواية يروي شعره ويحفظ معانيه ويتعرف صوره الفنية . فقد قيل ان زهيرا كان راوية اوس . وان الحطيئة كان راوية زهير . وان ابا زهير كان راوية ساعدة ابن جويره .. وهكذا تستمر الحلقة وقد دفعت هذه الحقيقة د . طه حسين الى الحديث عن « مدارس » شعرية(٩) .

٣ ـ الجمهور الادبي الذي يفهم الشعر ويتذوقه فيحكم عليه . ويتمثل هذا الامر بما لا مجال للشك فيه . بالاسواق الادبية التي تقام من ارجاء جزيرة العرب ..

---

(٧) تاريخ النقد الادبي عند العرب ١٠ ـ ١١

(٨) في تاريخ النقد والمذاهب الادبية ٢٣ وما بعدها .

(٩) انظر (في الادب الجاهلي) القاهرة (١٩٤٧) الكتاب الخامس .

مثل سوق عكاظ وسوق المربد ذومجاز . ذلك كله يدعو الى وجود نقد ادبي فأين هو ؟ لابد لنا قبل مناقشة المسألة بالتفصيل من ملاحظة مايأتي : ـ

١ ـ ان الروايات النقدية المنسوبة الى هذا العصر تخص الشعر دون النثر .

٢ ـ ان هذه الروايات قليلة قياسا الى الحقبة الزمنية التي تنتسب اليها .. والى كثرة الشعر .

٣ ـ ان هذه الروايات ترتبط بأسماء الشعراء ، بمعنى ان الناقد هو نفسه الشاعر .

وتفسير هذه الظواهر ليس بالامر الصعب . فالفن الادبي الوحيد الذي كان في ذلك العصر هو الشعر . ولم يكن للنثر شآن يذكر . والمؤرخ لادب هذا العصر لايجد للنثر مكانا الا فيما يقال عن الحكم والامثال وسجع الكهان وغيرها . وما كان موجودا من نثر جاهلي لم يحفظ لان الذاكرة الانسانية اقدر على حفظ الشعر واستظهاره من النثر . ولذلك روى الشعر ولم يرو النثر على قلته(١٠) وهذا السبب ايضا يفسر نزرة الروايات النقدية فهي كما نعلم ـ نثرية وفي ضوء الصورة التي يرسمها مؤرخو الادب لذلك العصر يفترض ان يصاحب ذلك تراث نقدي وافر . لكن صعوبة حفظ النثر ، وغياب التدوين غيابا يكاد يكون تماماً جعل الروايات النقدية الباقية نزرة الى درجة كبيرة . ولولا ان هذه الروايات ارتبطت بأسماء شعراء لهم وزنهم في الحياة الادبية لضاعت هي الاخرى مع ماضاع من روايات نقدية .(١١)

ومع قلة الروايات النقدية التي بين ايدينا يلمح الدارس تشعب اهتمامات الناقد الجاهلي . فقد كان ينظر الى النص الشعري من زوايا عدة . وكان عروض القصيدة واحدا من هذه الجوانب التي اولاها الناقد القديم اهتمامه . ومعياره في هذا اذنه الحساسة التي ترصد اي اختلال في وزن البيت . وهو اختلال يبدو اشد مايبدو عندما تغنى الابيات .

---

(١٠) ولو تأملنا في قول ابي عمرو بن العلاء (ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا اقله ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير) اقول لو تأملنا في هذا لسألنا انفسنا ... اذا كان حفظ الشعر ، وهو سريع الحفظ ، ضياع معظمه فما حال النثر اذن ؟

(١١) انظر في تاريخ النقد والمذاهب الادبية ، ص ٣٤ ، اذ يناقش المؤلف نزرة الروايات النقدية وصلة هذا بالبداوة

فقد روى المرزباني في الموشح « لم يقو احد من الطبقة الاولى ولا من اشبههم الا النابغة في بيتين : قوله

آمن آل مية رائح او مغتدى
عجلان ذا زاد وغير مزود
زعم البوارح ان رحلتنا غداً
وبذاك خبرنا الغراب الاسود

وقوله :

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه
فتناولته واتقتنا باليد
بمخضب رخص كأن بنانه
عنم يكاد من اللطافة يعقد

فقدم المدينة فعرض عليه ذلك ، فلم يأبه حتى اسمعوه اياه في غناء ... فقالوا للجارية اذا صرت الى القافية فرتلي(١٢) فلما قالت (الغراب الاسود و (باليد) علم فأنتبه فلم يعد اليه . وقال : قدمت الحجاز وفي شعري صنعة ، ورحلت عنها وانا اشعر الناس(١٣) .

ومع ان المرزباني يقول لم يقو احد من الطبقة الاولى واشباهها الا النابغة فأن هذا لا يعني ان الاقواء او غيره من عيوب القافية لم يكن موجوداً . فقد نسب الاقواء الى بشر بن ابي خازم وهو من الفحول ، ولاحظ اخوه سوادة الاقواء عليه ، فقال له انك تقوى فقال له ما الاقواء؟ فأنشده بيتيه ، ففطن بشر ولم يعد اليه(١٤) ونلاحظ ان سواده لم يعرف الاقواء عندما سأله بشر عنه ، وانما اورد له نموذجاً . ويبدو ان القدماء لم يكونوا يعرفون المصطلح انذاك .

وهو امر طبيعي . فالمصطلح ـ النقدي او سواه ـ لا يوجد الا بعد ان تكون الظاهرة وتتضح معالمها ، فيستقر بها الناس او النقاد ويضعون لها المصطلح الذي يحددها ويميزها وقد لاحظنا ان النابغة وصف الاقواء في شعره (بالصنعة) وفي رواية اخرى بالعاهة وفي رواية ثالثة (في شعرى شيء) .. وفي رواية رابعة

---

(١٢) الترتيل ابانة النطق والتمهل والترسل بلا اسراف

(١٣) الموشح ، تحقيق على محمد البجاوى (القاهرة ١٩٦٥) ٤٥ وما بعدها .

(١٤) السابق ٨١ وانظر الشعر والشعراء (ط ، بيروت) ١/ ٣٩

(بعض العهدة)(١٥) وهذا دليل على ان هذا الخلل لم يكن مفهوماً بعد . ولم يستقر بعد مصطلحه الخاص به .

والاقواء يقترن بتطور القصيدة نحو الاحسن واكتسابها الشكل العروضي الامثل ولذلك فهو ـ وسواه ـ اثر من اثار طفولة الشعر ودليل على ان العربي لم يهتد مرة واحدة الى حركة الروى فذم الاقواء نوع من البصر بالشعر، ونوع من النقد قائم على رصد وقع الشعر في السمع ، وعلى الانسجام والتماثل في القوافي . كما ان ، الاقواء ، يدل على ضعف في الصياغة لان حركة الروى فى القصيدة ادعى الى ان يكون الشعر منسجماً سائغاً(١٦) .

لقد كان في شعر القدماء لفظاً ومعنى . وبناءً وعروضاً ، مايدعو للالتفات اليه والتنبيه عليه وتصويبه ، اي بكلمة اخرى كان في شعرهم مايستوجب النقد ويدعو اليه . وقد اوردت لنا المصادر القديمة شيئاً من هذا قال صاحب الموشح (قد وقفنا على مااتاه الشعراء القدماء من الزلل والخطأ في قصيد اشعارهم او اراجيزهم قديمها وحديثها واحالتهم في نسج بعضها ، وما اتوا به من الكلام المذموم .(١٧) وقد يقوم دليلاً على صحة مايرويه المرزباني تسمية عدى بن ربيعة التغلبي بـ (المهلهل) لهلهلة شعره كهلهلة الثوب وهو اضطرابه واختلافه(١٨) .

ولعل ابرز رواية نقدية تمس نسيج القصيدة وصياغتها بالتقويم مايرويه المرزباني تحاكم الزبرقان بن بدر وعمرو بن الاهتم وعبدة بن الطبيب والمخبل السعدي الى ربيعة بن حذار الاسدي في الشعر ايهم اشعر ؟ .

فقال للزبرقان اما انت فشعرك كلحم اسخن لاهو انضج فأكل/ترك نيئا فينتفع به ، واما انت ياعمرو فأن شعرك كبرود حبريتلالا فيها البصر ، فكلما اعيد فيها النظر نقص البصر ، واما انت يامخبل فأن شعرك قصر عن شعرهم ، وارتفع عن شعر غيرهم . واما انت ياعبدة فأن شعرك كمزادة احكم خرزها فليس تقطر ولا تمطر(١٩) .

---

(١٥) الموشح ٤٧ ـ ٤٨ العهدة في اللسان العيب .

(١٦) تاريخ النقد الادبي عند العرب ١٥ ـ ١٩

(١٧) الموشح ٢٧

(١٨) السابق ١٠٥

(١٩) الموشح ١٠٧ ـ ١٠٨ والقصة رواية يرويها المرزباني نفسه ايضاً ، وفيها بعض الاختلاف لايمس الجوهر .

شعر الزبرقان ـ فيما يفهم من هذه الرواية ـ وسط لم يرتفع الى مستوى عال من الجودة ، ولم ينخفض الى دون المتوسط . وشعر ابن الاهتم متين النسج قوي الاسر . وشعر المخبل لم يرتفع الى شعر جماعته ، الا انه افضل من شعر غيره . وشعر عبدة بن الطبيب قوي متين متماسك . ومهما يكن من اختلاف المؤرخين في فهم هذه الاحكام النقدية المجازية فأنها لاتخرج ـ كما لاحظنا ـ عن قضية الصياغة والنظم ، وما ينبغي ان يكون عليه الشعر من قوة ومتانة ، او ضعف وركاكة(٢٠)

ولقد عد د. احسان عباس هذا النموذج النقدي من ارقى الامثلة واشدها دلالة على طبيعة النقد الادبي ، قبل ان يصبح لهذا النقد كيان واضح . فهو نموذج يجمع بين النظرة التركيبية والتعميم والتعبير عن الانطباع الكلي دون اللجوء الى التحليل وتصوير مايجول في النفس بصورة أقرب الى الشعر نفسه . وذلك هو شأن أكثر الاحكام التي نجدها منذ الجاهلية حتى قبيل اواخر القرن الثاني الهجري .(٢١)

ومع هذا [illegible] لهذا النص النقدي يلحظ (منهجا) او(معيارا) لتقويم الشعر يقوم على الموازنة كما في حكم الناقد على شعر المخبل(٢) مع ان منهج الموازنة يبدو أوضح بكثير فيما ينسب الى ام جندب زوج أمرىء القيس التي وازنت بين شعر زوجها وشعر علقمة الفحل . والرواية تمضي الى القول ان امرأ القيس وعلقمة بن عبدة تنازعا في ايهما اشعر فاحتكما الى ام جندب فقالت : قولا شعرا ، تصفان فيه فرسيكما على قافية واحدة وروى واحد . فقال امرؤ القيس : ـ

خليلي مرا بي على ام جندب
تقضي لبانات الفؤاد المعذب

وقال علقمة :
ذهبت من الهجران في غير مذهب
ولم يك حقا طول هذا التجنب

---

(٢٠) انظر تاريخ النقد العربي عند العرب ١٦ و د . داود سلوم ، النقد العربي القديم ط٢ ، ١٩٧٠ ، ص ١٤ .
(٢١) تاريخ النقد الادبي عند العرب ١٣ .
(٢٢) النقد العربي القديم ١٤

فانشداها جميعا القصيدتين ، فقالت لامرىء القيس : علقمة اشعر منك . قال : كيف ؟ قالت لانك قلت :

فللسوط الهوب وللساق درة
وللزجر منه وقع اخرج مذهب

فجهدت فرسك بسوطك ومريته ، فأتعبته ... وقال علقمة :

فأدركهن ثانيا من عنانه
يمر كمر الرائح المتحلب

فأدرك فرسه ثانيا من عنانه ولم يضربه ولم يتعبه . فقال ماهو باشعر مني ولكنك له عاشقة فسمي الفحل لذلك(٢٣)

والقصة على النحو الذي يرد في المصادر القديمة لاتدعو للاطمئنان فالموازنة التي ارادت ان جتدب اقامتها بين الشاعرين اعتمدت على وحدة الموضوع (وصف الفرس) ووحدة القافية والروى . ومثل هذه الموازنة تبدو غير طبيعية على امرأة بدوية ساذجة تستخدم مصطلحاً « عروضيا » (القافية والروى) في زمن لم تكن هذه المصطلحات قد نشأت بعد .

ثم ان الموازنة على هذه الاسس لم تنشأ الا في فترة متأخرة وبالتحديد عند الامدي في كتاب (الموازنة بين الطائيين) الذي انتهج هذا المنهج لتقويم الشاعرين ابي تمام والبحتري كما سيمر بك واقامها على الاسس نفسها التي رأيناها عند الناقدة العربية القديمة(٢٤) زد على ذلك ان القصة وضعت فيما يبدو لتفسير تسمية علقمة بـ (الفحل) .

ومع ذلك فقد يكون للقصة اساس من الصحة ، ولكن ليست على نحو ماروواها المرزباني وغيره . فقد تكون هذه المرأة قد فضلت فعلا شعر علقمة ، ولكن لم يكن التفضيل ولا الموازنة على الاسس التي تشير اليها الرواية . اية ذلك ان القصة نفسها تروي على نحو مختلف بعض الشيء بمقدار مايتعلق الامر بالمصطلح العروضي الذي دعا الدارسين للشك .(٢٥)

---

(٢٣) الموضح ٢٨ ـ ٢٩ وانظر الرواية في الشعر والشعراء (دار الثقافة بيروت ١٩٦٤) ١٤٥ ـ ١٤٦ +

(٢٤) الموازنة ، تحقيق احمد صقر (القاهرة ١٩٦١) ١ / ٧ ، ٥٤ ، ٣٨٨

(٢٥) الموشح ٢٩ ـ ٣٠

فالمعقول ان يكون في ذلك العصر نوع من الموازنة البسيطة ، وليس من المعقول ان تقوم الموازنة على اسس واضحة ودقيقة تكشف عن نضوج في المنهج والرؤية ، والى مثل هذا يذهب الاستاذ طه احمد ابراهيم . يقول :

ولكن في هذه القصة طعنا ، ان لم يحمل على رفضها جملة ، فهو يحمل على رفض كثير منها ، في قصيدتي علقمة وامرىء القيس توافق في غير بيت ، وفيها مشاركة في كثير من الالفاظ والعبارات والمعاني ... ولو جعلنا قصيدة امرىء القيس اصلا ـ اذ انه الذي انشد اولا ـ كانت قصيدة علقمة تكرار لها في ابيات بتمامها (ثم) ان امرأ القيس عرف بوصف الخيل والصيد وشهر بذلك بين دون الجاهليين .. ولعلّ ذلك ماحمل عبد الله بن المعتز على ان ينكر هذه القصيدة فيما انكر من شعر امرىء القيس . وهذا محتمل جدا .

ثم ان الموازنة على شرط الجمع بين ثلاثة اشياء فكرة على شيء من الدقة لاتتلاءم والروح الجاهلي في النقد الادبي . هذا الى اننا نرتاب في ان جاهليا ، يدرك الفرق بين الروى والقافية .

واذا كان لابد من الاطمئنان الى شيء من هذه القصة ، فأننا نأخذها كما رواها ابو عبيدة من ان شاعرين تحاكما الى زوج امرىء القيس دون ان يذكر للحكم اسما .. وهي بهذا تلائم العصر الجاهلي ، وترينا ان النقد لايزال فطريا ... الخ(٢٦)

ومثل هذا يرى د . طه الحاجري ، وان لم يكن بالتدقيق والتفصيل نفسه ، يقول (وقد يكون في النفس شيء من هذه القصة ، باعتبار ان ماتتضمنه من نقد اشبه بصنيع المتأخرين في النقد والموازنة ، ولكنني مع ذلك لا اذهب الى حد انكارها جملة ورفضها رفضاً باتاً مطلقاً . فروح النقد ، وان يكن نقداً معللاً روح بسيطة متواضعة لاينبغي ان يثير شبهة)(٢٧)

وثمة رواية نقدية اخرى يطالها الشك وتنسب الى النابغة . والرواية تمضي على الشكل الاتي (كأن النابغة تضرب له قبة حمراء من آدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه اشعارها . قال فأول من انشده الاعشى ميمون بن قيس ابو بصير . ثم انشده حسان بن ثابت الانصاري :

---

(٢٦) تاريخ النقد الادبي عند العرب ، ٢١ ـ ٢٢

(٢٧) في تاريخ النقد والمذاهب الادبية ، ٢٨

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى
واسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق
فأكرم بنا خالا واكرم بنا ابنما

فقال له النابغة : انت شاعر ولكنك اقللت جفانك واسيافك ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدن(٢٨) وعقب الصولي على نقد النابغة بقوله (فأنظر الى الى هذا النقد الحليل الذي يدل عليه نقاء كلام النابغة وديباجة شعره قال له : اذللت اسيافك لانه قال واسيافنا . واسياف جمع لادنى عدد والكثير السيوف . والجفنات لادنى العدد والكثير الجفان . وقال فخرت بمن ولدت لانه قال (ولدنا بني العنقاء وابني محرق ... فترك الفخر بآبائه ، وفخر بمن ولدت نساؤه(٢٩) كما انكر اخرون قول حسان (يلمعن بالضحى) ولم يقل (بالدجى) وقوله (واسيافنا يقطرن) ولم يقل (يجرين) لان الجري أكثر من القطر(٣٠)
ومهما يكن من أمر فأن النقد الذي وجه الى حسان لا يتجاوز :

١ ـ استخدام جموع القلة بدل جموع الكثرة .
٢ ـ انه فخر بالابناء ولم يفخر بالاباء .

وكان الاستاذ طه احمد ابراهيم قد رفض الرواية لان ما فيها من نقد تأباه طبيعة الاشياء ، اذ لم يكن الجاهلي يعرف جمع التصحيح وجمع التكسير وجموع القلة وجموع الكثرة ولم يكن له ذهن علمي يفرق بين هذه الاشياء كما فرق بينها ذهن الخليل وسيبويه . ومثل هذا النقد لا يصدر الا عن رجل عرف مصطلحات العلوم ، وعرف الفروق البعيدة بين دلالة الالفاظ والم بشيء من المنطق(٣١)

والحق ان القصة كما يلاحظ د . طه الحاجري ، ليس فيها مايدعو الى الشك القائم على معرفة جموع القلة او الكثرة . فالنابغة ميز بحسه اللغوي بين استخدامين (اسياف) و (سيوف) و (جفنات) و (جفان) فلاحظ في الاولى

---

(٢٨) الموشح ٨٢ وما بعدها . وللقصة روايات اخرى لاتختلف كثيراً عن الرواية التي ذكرناها وقد اوردها المرزباني ايضاً .
(٢٩) السابق ٨٣
(٣٠) السابق ٨٤
(٣١) تاريخ النقد الادبي عند العرب ٢٢

دلالة القلة وفي الثانية دلالة الكثرة(٣٣) ومعرفة كهذه ليست بعيدة عن عرب الجاهلية بعامة وشعرائهم بخاصة .

فهو امر طبيعي لمن رزق ملكة الشعر والشاعر كما يقال سيد اللغة ـ ان يدرك مثل هذه الفروق الدقيقة .

ولا نجد ـ فضلا عن ذلك ـ في نقد النابغة مايدل على ادراك لطبيعة الاستخدام اللغوي في الشعر فالكلمة في النص الشعري لاينظر الى دلالتها المعجمية وانما الى دلالتها الرمزية الايحائية وعلى هذا فأن كلمة (اسياف) يمكن ان تفهم بدلالتها الرمزية القائمة على الشجاعة والاقدام والنجدة والفتك بدلالة الدماء التي جاءت بعدها . وقد ادت الكلمة ، بصرف النظر عن كونها جمع قلة او جمع كثرة ، هذا المعنى وكذلك (الجفنات) فدلالتها الرمزية على الكرم واضحة .

والرواية ان دلت على شيء فانما تدل على ان النقد في ذلك العصر كان يوجه عنايته للالفاظ واستعمالاتها ودلالاتها في السياق الذي ترد فيه .... اما الفخر بالاولاد دون الاباء فهو نقد لايمت بصلة الى الفن الشعري ، انما هو نقد اجتماعي يرتبط بالاعراف الاجتماعية .

---

(٣٣) في تاريخ النقد والمذاهب الادبية ٤٢ .